

الصراع السياسي في الشرق الأوسط – الجانب الإستراتيجي

الياس فرحات *

مقدمة

يمكن اختصار الصراع في المنطقة بأنه صراع في الشرق الأوسط وصراع على الشرق الأوسط. بعد سايكس بيكو وانشاء الكيانات السياسية وما تلاها من تقسيمات فرنسية وبريطانية كل في منطقة سيطرته، لم تعرف هذه المنطقة الاستقرار وعاشت حالة من القلق وانعدام اليقين السياسي. كانت الصورة تظهر دائما : انظمة تهجس بمصيرها وشعوب تسعى الى الحرية ورغيف الخبز معا وكان المنال دائما صعبا. تمتعت الكيانات النفطية بالاستقرار السياسي في ظل انظمة ملكية واميرية وراثية وحقت طفرة اقتصادية تقوم على الاستهلاك والخدمات بفضل ايرادات النفط والغاز. اما باقي الكيانات فقد عانت من عدم الاستقرار والفقر والتخلف وجاهدت من اجل تحقيق بعض التقدم في الاقتصاد وحرية القرار.

منذ انشاء الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ اخذت الحروب العربية الاسرائيلية تستنزف ما تبقى من قدرات دول المواجهة فانهدكت اقتصادها واربكت نموها وقوضت حريتها بذريعة اعطاء الاولوية لمواجهة العدو. اختلط النزاع العربي - الاسرائيلي بالصراع الدولي بين القطبين المتنافسين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

مع ولادة النظام العالمي الجديد الاحادي القطبية عام ١٩٩٢ انتهى الاستقطاب الدولي في الشرق الأوسط ووضحت كل الدول تحت هيمنة القطب الواحد الولايات المتحدة التي اظهرت صداقة لدول عدوة لبعضها البعض، وكانت صداقتها في معظم الاحيان تخفي عدا خبيثا تجاه بعض الدول لا سيما العربية منها. تغير الاستقطاب في دول المنطقة من موالي للمعسكر الاميركي مقابل موالي للمعسكر السوفياتي، الى ملتحق بالمعسكر الاميركي الاوحد بالشروط الاميركية.

اربك الاستقطاب الجديد المقاومة الفلسطينية التي كانت متحالفة مع الاتحاد السوفياتي وقفزت بسرعة للاتصال بالولايات المتحدة سعيا وراء سلام موعود فكان مؤتمر مدريد ثم

(*) عميد متقاعد في
الجيش اللبناني، خبير
استراتيجي.

اتفاقات اوسلو وكثرت بعدها الاتفاقات والمؤتمرات وغاب السلام وكادت الحقوق الفلسطينية ان تضيق.

في ظل الاحادية القطبية وتحديدا من عام ١٩٩٢ ولغاية ٢٠١١ اي لمدة نحو عشرين عاما لم يكن هناك استراتيجيات في المنطقة ولا تنافس استراتيجي، بل سباق على كسب ود الاميركي وتسليم المقدرات الوطنية للسيد الاميركي.

وحدها ايران كانت "شاذة"، لم تنصع للارادة الاميركية. عاشت حصارا كبيرا والتزمت بقيم التقوى الدينية والعدالة والاستقلالية من اجل الصمود والبناء. طالما لوح الغرب بضربة عسكرية لايران وكان ردها دائما الاستعداد للمواجهة من دون القبول بالشروط الاميركية. بلغت الامور بين ايران والغرب حافة الهاوية، عقوبات اقتصادية وحصار سياسي وحرب اعلامية شرسة لشيطنة صورة طهران.

خلال فترة الاحادية القطبية حصلت حروب تقليدية في العالم كانت محسومة النتائج سلفا. التدخل العسكري الاميركي في البلقان في التسعينات وحرب افغانستان عام ٢٠٠١ وحرب العراق عام ٢٠٠٣. فرنسا ايضا خاضت حروبها في حديقتها الخلفية في غرب افريقيا حفاظا على مصالحها وانقاذا لاقتصادها من الانكماش والترنح. لم تحتج هذه الحروب الى استراتيجيات بل كان التعامل معها من قبيل ادارة الازمات اكثر من الاستراتيجية.

عرفت الولايات المتحدة كيف تدخل الحروب وكيف تكسب المعارك لكنها لم تعرف كيف تخرج منها، فكانت نتائج الخروج كارثية. في العراق اسفرت الحرب الاميركية على نظام صدام حسين عن تغيير استراتيجي لصالح خصمها اللدود ايران، اذ توسع النفوذ الايراني الى العراق وازداد في لبنان الموجود فيه اصلا ووصل الى غزة واليمن والصومال والسودان واريتريا. بعد الغزو الاميركي للعراق باتت ايران قوة اقليمية لا يمكن تجاوزها وبدأت تتشكل استراتيجية اقليمية ايرانية ظهرت في المواقف الايرانية البراغماتية المتأنية ازاء مشاكل المنطقة.

روسيا وريثة الاتحاد السوفياتي غابت عن المنطقة، وتركته لصديقتها الجديدة الولايات المتحدة الاميركية، وحين وصل الامر الى محاولة اسقاط النظام السوري قامت روسيا من كبوتها ومارست حق الفيتو في مجلس الأمن في ٥ تشرين الثاني ٢٠١١ وذلك في اول خطوة بعد انتهاء الحرب الباردة أشرت الى بداية افول النظام العالمي الاحادي القطبية.

١ - الصراع في الشرق الاوسط

أ - اللاعبون من الدول:

- مجلس التعاون الخليجي ناقص قطر وعلى رأسها السعودية

- اللاعب المنفرد قطر - ايران - تركيا - اسرائيل - سوريا - مصر
خرج العراق من الحساب وكذلك خرجت باقي دول شمال افريقيا والسودان وجنوبه
واليمن.

ب - اللاعبين من غير الدول:

- التنظيم العالمي للاخوان المسلمين:

يعتبر التنظيم العالمي للاخوان المسلمين اكبر لاعب من غير الدول في العالم يتواجد
التنظيم في اكثر من ٣٧ دولة معظمها في العالم الاسلامي. في تركيا العلمانية تسلم حزب
العدالة والتنمية السلطة منذ عام ٢٠٠٢ وهو من احزاب الاخوان المسلمين. توصل
الاخوان الى تسلم السلطة في مصر وتونس وليبيا وهم اكبر تنظيم سياسي في المعارضة
السورية. شكل الاخوان المسلمون خطرا على السلطة في دول مجلس التعاون ناقص قطر
فمنعوا وحوكموا. قادت السعودية حملة ضدهم وساعدت المجلس العسكري وقوى
المعارضة المصرية للاطاحة بحكم الاخوان. رغم ان مجلس التعاون الخليجي واجه
الاخوان في دول المجلس ومصر وتونس الا انه دعمهم في سوريا والعراق.

- حزب التحرير الاسلامي:

يتواجد بنسبة اقل في عدد كبير من البلدان الاسلامية ويلاحظ نشاطه في اندونيسيا
واسيا الوسطى والصفة الغربية.

- السلفية جهادية - تنظيم القاعدة

كان تنظيم القاعدة يتألف من خلايا نائمة تستيقظ وتقوم بعمليات اراهبية محدودة مثل
عمليات ١١ ايلول ومدريد ولندن وغيرها. اما اليوم وتحديدا في سوريا فقد أصبحت
القاعدة مؤلفة من جيوش اذ يبلغ عديد جبهة النصرة وكذلك دولة الاسلام في العراق
والشام داعش نحو ٢٠ الفا كلا منهما. تتطلب هذه الجيوش قاعدة لوجستية للتموين
بالسلاح والذخيرة والاليات والوقود والدعم الطبي وغيرها. وفي هذه الحالة لم تعد القاعدة
تنظيما سريريا بل جيشا علنيا يجري تموينه وادارته من قبل دول.

- حزب الله: وهو حزب لبناني لم تظهر له فروع خارجية وانما يقيم تحالفا مع طهران
وحركات المقاومة في فلسطين. بعد تحرير لبنان من الاحتلال الاسرائيلي عام ٢٠٠٠
 واجتماع الامين العام للامم المتحدة كوفي انان مع امين عام الحزب السيد حسن نصر
الله تم الاقرار بان الحزب لاعب اقليمي اساسي من غير الدول. سبق ذلك تفاهم نيسان
الخطي عام ١٩٩٦ الذي كان الحزب طرفا فيه. كرس دخول حزب الله الى القصير في
سوريا دور الحزب الاقليمي بالاضافة الى ان الترسانة الصاروخية للحزب والتي تغطي
كل الاراضي الفلسطينية المحتلة شكلت ردعا نسبيا لاسرائيل، هو الوحيد من نوعه في
المنطقة. دفع ذلك اسرائيل والولايات المتحدة الى استهداف الحزب وسلاحه سياسيا

واعلاميا وبات الحديث عن نزعه لازمة في التصريحات السياسية في اسرائيل والولايات المتحدة وبعض الدول العربية والقوى السياسية.

- حركتا، حماس والجهاد الاسلامي. كانتا امتدادا عملانيا لحزب الله لغاية الربيع العربي حيث خرجت حماس من تحالفها مع سوريا وانضوت تحت قيادة مكتب الارشاد للتنظيم العالمي للاخوان المسلمين. رغم ان الاتصالات لم تنقطع بين حزب الله وايران من جهة وحركة حماس من جهة اخرى فان نشاط المقاومة عند حركة حماس تراجع الى حد كبير. ما تزال حركة الجهاد الاسلامي على موقفها لكنها لا تشكل حجما كبيرا يؤثر على الموقف الفلسطيني العام.

اما منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية وحركة فتح وهي ثلاثة مسميات لجسم واحد فهي تتأرجح بين مشروع دولة وحركة تحرير وتراجع نفوذها العربي والاسلامي بعد اوسلو وباتت الممثلة البيروقراطية للشعب الفلسطيني.

ج - التنافس الاستراتيجي في الشرق الاوسط:

يحلو لبعض السياسيين في العالم ومراكز الدراسات الكلام عن الصراع السني - الشيعي ويسعون الى تفسير الاحداث من خلال ارتباطها بهذا الصراع. وفي هذا الاطار تبرز ايران زعيمة للمحور المقاوم او الممانع او الشيعي وتتحالف مع سوريا وحزب الله في لبنان وحماس والجهاد الاسلامي في فلسطين وانصار الله المعروفين بالحوثيين في اليمن وحركات المعارضة في المنطقة الشرقية الشيعية في السعودية والبحرين بالاضافة الى الصومال واريتريا.

بغية الخروج من الطابع المذهبي للتحالفات، عملت ايران على تسييس الصراع وتوجيهه ضد اسرائيل والهيمنة الاميركية، بدلا من تطييفه سنيا - شيعيا. في هذا المجال برزت علاقاتها الوثيقة مع تركيا رغم الخلافات الكثيرة بينهما لا سيما في المسألة السورية ونظام الحكم، كما احتفظت بعلاقاتها مع حركة حماس وبقدر اقل مع الاخوان المسلمين لكي تبعد الطابع السني الشيعي للصراع منوهة بان اقوى دولة سنية، تركيا، واقوى دولة شيعية، ايران، على قدر كبير من الوفاق بالمناسبة دولة ازربيجان الشيعية تصطف مع تركيا التي تشاركها الاثنية ضد ايران التي تشاركها المذهب. ساعد ايران على تسييس الصراع، النزاع القائم بين دول الخليج والاخوان المسلمين الذي يتخذ طابعا سلطويا سياسيا وليس ايديولوجيا، بالاضافة الى ما يجري في مصر بين الاخوان المسلمين والحكومة المصرية والذي يحصل ضمن المذهب الواحد.

المحور الاخر تتزعمه المملكة العربية السعودية ومجلس التعاون الخليجي وتشاركها تركيا وهذا المحور يعتبر ان النزاع في المنطقة هو مع ايران ويتحدث عن اطماع ايران في المنطقة وتدخلها في الشؤون العربية وتبنيها للتنظيمات الشيعية.

فيما يعتبر محور المقاومة ان الصراع مع اسرائيل هو الاساس ولا يغيب عن ادبياته ومواقفه السياسية فان محور السعودية تركيا لا يعير في خطابه السياسي على الاقل، للصراع العربي الاسرائيلي اية اهمية ويركز دوما على الخطر الايراني.

يرتبط التوازن الاستراتيجي بين المحورين بالدعم الدولي اذ تدعم الولايات المتحدة المحور السعودي الى اخر الحدود، فيما تتولى ايران دعم محور المقاومة. اصبحت ايران قوة نووية سلمية مستقلة من دون اسلحة نووية لكنها عملت على تطوير قواتها البحرية بشكل كبير واصبحت تتفوق على الدول العربية المقابلة لها في الخليج مجتمعة. تنتشر الغواصات الايرانية في كمائن في اعماق الخليج وبحر عمان. كما بنت ايران قوة صاروخية هامة وطائرات من دون طيار.

في المقابل تتفوق السعودية وحلفائها على ايران في القوات الجوية واجهزة الانذار ما يشكل تهديدا جديا لايران. جميع الاسلحة في مجلس التعاون مستوردة من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا، فيما معظم الاسلحة الايرانية بما فيها الطائرات والصواريخ والمراكب البحرية هي من خطوط انتاج وطنية إيرانية وهذا ما يعطي تفوقا ايرانيا على المدى البعيد.

تقف اسرائيل في هذا التنافس الاستراتيجي حائرة، في اخر اجتماع للقادة العسكريين الاسرائيليين حصل خلاف على تحديد الاولويات التي تهدد اسرائيل. صحيح ان اسرائيل تخلصت من خطر الجيوش العربية لكنها تنظر بعين الخطر لتنامي الحركات المسلحة وهي تهجس خوفا من حزب الله وينتابها كابوس ان تتحول الحركات السلفية الموالية للقاعدة الى العمل ضدها فتخشى نهايتها المحتومة.

تحول النزاع مع اسرائيل الى حرب ناعمة سلاحها السياسة والدبلوماسية والاستخبارات والامن والديموغرافيا والاقتصاد. هناك نقاط ضعف عديدة في اسرائيل جعلتها تفقد دورها كحارس للمنطقة خصوصا بعدما جاء الاصيل اي الولايات المتحدة، الى المنطقة بقواته العسكرية والدبلوماسية ليحافظ على مصالحه بدلا من الاتكال على الوكيل الاسرائيلي.

٢ - الصراع على الشرق الاوسط

قبل الربيع العربي لم يكن النفوذ الروسي واضحا في الشرق الاوسط وكانت روسيا تسلم للولايات المتحدة في كل امور المنطقة لا سيما عملية السلام العربية الاسرائيلية. لم تكن روسيا حاضرة في تفاهم نيسان ١٩٩٦ ولا عند تحرير الجنوب عام ٢٠٠٠ ولا في حرب ٢٠٠٦، كما كانت متفرجة في الحرب الاميركية على افغانستان عام ٢٠٠١ ولم يكن لها حينئذ تأثير على دول اسيا الوسطى التي فتحت حدودها واجواءها وقدمت قواعد جوية

للولايات المتحدة، وكذلك لم تكن حاضرة في الحرب على العراق عام ٢٠٠٣. عام ٢٠٠٤ لم يستسغ الروس القرار ١٥٥٩ الداعي لانسحاب القوات الاجنبية ونزع سلاح الميليشيات لكنها امتنعت عن التصويت. عام ٢٠٠٧ عندما صوت مجلس الامن على انشاء محكمة دولية كانت كلمتا المندوب الروسي والصيني عنيفتين في معارضتهما للقرار لكنهما اکتفيا بالامتناع عن التصويت. استخدمت روسيا والصين لأول مرة حق الفيتو في ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١ وكان ذلك محطة اساسية في الصراع الدولي على الشرق الاوسط. ما هي الاسباب الاستراتيجية لهذا القرار؟

الاسباب غير المباشرة هي ابقاء الولايات المتحدة على حلف شمال الاطلسي وضم اعضاء جدد اليه من اوربا الشرقية، والدرع الصاروخي الذي اقامته الولايات المتحدة في اوربا الشرقية ضد روسيا، رغم ان الدبلوماسية الاميركية كانت تقول ان الدرع موجه ضد خطر الصواريخ الايرانية على اوربا. امتد هذا الدرع من البلطيق الى تشيكيا وتركيا وشكل نقطة توتر في محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وروسيا بعدما كانت حققت تقدما في تخفيض ترسانة الصواريخ النووية في البلدين. في سياق الحرب السورية لم تتردد واشنطن في نشر صواريخ باتريوت في تركيا والاردن وطائرات اف ١٦ في الاردن.

نظرت روسيا بعين الريبة الى امتداد الحركات المتشددة في اسيا الوسطى والقوقاز وحوض الفولغا، وبعد حرب الشيشان استمرت الاعمال الارهابية في داغستان وتارستان وانغوشيا ووصلت الى مسرح موسكو واخيرا الى فولغو غراد. اعتبرت روسيا ان الارهاب يشكل تهديدا لأمنها القومي، فيما رأت الصين ان الارهاب في منطقة تشينغ تشان حيث اقلية الايغور المرتبطة اثنيا بتركستان بات خطرا حقيقيا.

عندما تولى الاخوان المسلمون السلطة في مصر وتونس وليبيا انتعشت حركات الاسلام السياسي في جنوب روسيا مدعومة اثنيا من الاسلام السياسي التركي. شكلت الحرب السورية عنصر قلق عميق لدى روسيا والصين واعتبرت روسيا ان اسقاط النظام السوري واحلال نظام اسلامي بدلا عنه بمثابة ضربة استراتيجية كبيرة لامنها القومي، لذلك كانت روسيا ومعها الصين الداعم الكبر للنظام السوري وبذلت جهودها للتوصل الى حل سياسي يحفظ النظام، ولا تزال في جنيف ١ وجنيف ٢ تتحدث عن حل سياسي من دون اسقاط النظام.

شكلت الساحة السورية منطقة اشتباك اقليمي بين المحور الخليجي التركي ومحور ايران سوريا، وكذلك منطقة اشتباك بين الولايات المتحدة والاتحاد الروسي ومعها الصين. دفع الجانبان باقصى قواهما الى المنطقة سعيا لحسم المعركة. الولايات المتحدة وبعد فشل الجيش السوري الحر، وافقت على الاستعانة بتنظيم القاعدة (جبهة النصرة وداعش)

وغضت النظر عن التسهيلات اللوجستية والعملائية التركية الاطلسية لتنظيم القاعدة. في هذا المجال كشف مدير الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية الجنرال افيفي كوشافي عن وجود ثلاثة معسكرات لتنظيم القاعدة في تركيا الاول في كرمان في الاناضول والثاني في عثمانية قرب اضنة والثالث في اورفة جنوب شرق تركيا.

في المقابل انتقل حزب الله الى سوريا ليساند قوات النظام وكانت معركة القصير نقطة تحول في الحرب السورية (نلاحظ ان دخول حزب الله الى القصير جاء بعد اجتماع بوغدانوف - نصر الله في بيروت في نيسان ٢٠١٣) كما دخل عراقيون اطلق عليهم اسم لواء ابو الفضل العباس الى سوريا وخصوصا الى منطقة الست زينب في ريف دمشق بالاضافة الى خبراء ايرانيين وروس.

تجاوزت الحرب السورية حالة الحرب بالواسطة *Proxy War* الى مواجهة حقيقية تجلت بتحركات الاسطول الروسي في شرق المتوسط وتزويد سوريا بصواريخ ياخونت ضد السفن وبيانتسير ضد الطائرات وكلام ملتبس عن صواريخ س ٣٠٠. في المقابل كادت الولايات المتحدة ان تشن حربا مباشرة على سوريا لكن الساحر الروسي اخرج تسوية الكيماوي من اكمامه والغى الهجوم.

اعتبر الناطق بلسان الخارجية الروسية لوكاشيفيتش انه يترتب على نتائج الحرب السورية نشوء نظام امني عالمي جديد. شعرت روسيا انها خدعت في ليبيا حين تحول قرار مجلس الامن لحماية المدنيين الى هجوم على ليبيا واحتلالها.

ادى التعاون السوري الروسي الى انقاذ النظام السوري من جهة، وانبثاق القوة العظمى الروسية من جهة اخرى وخصوصا في منطقة الشرق الاوسط.

ختاما ارى من المبكر الحديث عن نظام ثنائي القطبية لكن النظام احادي القطبية بدأ بالانقراض. في منطقة الشرق الاوسط بدأت روسيا والصين تقولان لا. لكن لايمكنهما بعد الانفراد بنعم. سوف تستمر الحرب السورية باقصى عزمها لتحقيق نهايتها صورة اولية للنظام الامني الجديد في الشرق الاوسط وميزانا لنفوذ الولايات المتحدة وروسيا في

المنطقة □